

## تفسير سورة الحجرات

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانْفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، أو لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، أو لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم، أو لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل، ﴿وَانْفُوا لِلَّهِ﴾ أي فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا بَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعاً أصواتهما حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافاً فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علسه، فاتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «أذهب إليه، فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي إنما نبيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه، وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده، وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ أي خلصها لها، وجعلها أهلاً ومحللاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى الإمام أحمد عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتبه المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتبه المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتبهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف العرب، فقال: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة، والمصلحة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه، روى الإمام أحمد أن الأقرع بن حابس نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه، فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله عز وجل».

﴿يَتَأَيَّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْهُ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ

تُدْمِينًا﴾

يأمر الله تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق، لأنه مجهول الحال. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، فلما سمع بذلك القوم تلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم،

فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فصغوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ونزلت. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التبث من الله والعجلة من الشيطان».

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] ثم بين أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِتُّمْ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي حببه إلى نفوسكم، وحسنه في قلوبكم. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهي جميع المعاصي، وهذا تدرج لكمال النعمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم، ونعمة من لدنه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَنِيْلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقِيَّءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسامهم مؤمنين مع الاقتال، وهذا استدلال البخاري بأنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَنِيْلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقِيَّءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه ﴿فَإِن فَآءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وفي الحديث: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين

يدي الرحمن عز وجل بما أفسطوا في الدنيا». رواه ابن أبي حاتم، ورواه النسائي، وإسناده جيد قوي، ورجاله على شرط الصحيح.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٤)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وفي الصحيح «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: «أمين» ولك بمثله». ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني الفتنتين المقتلتين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ يَبْسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١)

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبير بظر الحق، وغمص الناس، ويروى وغمط الناس» والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام، فإنه قد يكون المحقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تلمزوا الناس، والهماز للماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١١) والهمز بالفعل، واللمز بالقول، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّا يَبْسِمُونَ﴾ (١١) [القلم: 11] أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29] أي لا يقتل بعضكم بعضاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وليس فيها - يعني بني سلمة - رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾ وقوله جل جلاله ﴿يَبْسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنازع بالألقاب، كما كان في أهل الجاهلية، تتناعتون بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً، فعن عمر رضي الله عنه: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محلاً. وروى ابن ماجه عن ابن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك: ماله ودمه وأن يظن به خيراً». وروى البخاري وأبو داود عن رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخواناً»، وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها». وروى سفيان الثوري عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي بعضكم على بعض، والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى: ﴿يَبْتَغِي أَذْهَبًا أَذْهَبًا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما في الحديث: «لا تجسسوا ولا تحسسوا...». ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهي عن الغيبة، روى أبو داود، قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي وقال حسن صحيح. وروى أبو داود أن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فآكروهوا ذلك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ: «العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله تعالى، ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار

بعض الناس بعضاً منها على تساويهم في البشرية ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي إنما يتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى، لا بالأحساب، روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» ورواه النسائي. وروى مسلم عن رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله» تفرد به أحمد رحمه الله. وروى الطبراني عن رسول الله ﷺ: «المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بكم، خبير بأموالكم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقيل في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي وقيل: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، والصحيح الأول، وهو أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: 21] ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنما المؤمنون الكمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي وبدلوا جهدهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي في قولهم إذا قالوا: مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

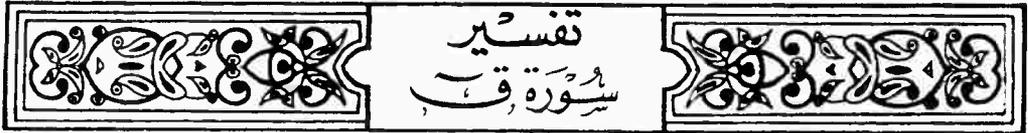
﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦)

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي تخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .  
﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَّمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَّمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ يعني الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأَنْصَارِ يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ وكلما قال شيئاً، قالوا: لله ولرسوله المن» .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

ثم كرر تعالى علمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) .



هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. روى الأمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً ستين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذ خطب الناس. ورواه مسلم. والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحجاب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١)

تقدم الكلام عن حروف الهجاء في أول سورة البقرة ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي القرآن الكريم العظيم